الرسائل الصوفية

الرسالة الاولى

القاهرة : شوال سنة ١٣٥٦

الثمن ٢٥ مليماً

المطبعة السلفية

جميع الخطابات الخاصة بهذه الرسائل تكون باسم الناشر :
بعنوانه : سراى السادة البكرية بالخرنفش ـ القاهرة



مقدمة

« وتعاونوا على البر والتقوى »

(قرآن كريم)

أما بعد فبعون الله ومشيئته فهذه أولى الرسائل الصوفية التى بها نسعى الى سدّ بعض الفراغ . الذى يشعر به أهل الطريق والمتصوفة فى عهد ازدادت فيه الحاجة الى وسيلة للاتصال المستمر بين أهل روح واحد وعقيدة واحدة

وانه لمن نعمة الله عز وجل الذى شاء أن يسبغها على أمتنا أن يتملك أعنة حكمها فى هذا العهد السعيد ملك عظيم محبوب غيور على الدين هو الملك فاروق أعزه الله ونصره وأطال حكمه ونفع به المسلمين وبلادهم . لذلك لا يسعنا الا أن نستبشر خيراً بصدور هذه الرسائل فى مستهل حكم الفاروق السعيد المبارك ، أصلح الله شأننا وشأن المسلمين أجمعين وسدد خطانا وألهمنا من عنده الحكمة والتقوى . وبالله التوفيق

كلمة

عن مبادىء ومحتويات الرسائل الصوفية

بعون الله تعالى وبمشيئته قد اعتزمنا اصدار الرسائل المتقدمة الذكر والتى أسميناها « الرسائل الصوفية » لنحقق بها رغبة قديمة والحاحا متواصلا من جهود أهل الطريق نفع الله بهم الناس والبلاد ، نزولا على تلك الارادة الملحة وتحقيقا لتلك الرغبة الشريفة سائلين الله عز وجل أن يملأ بها ثغرة شاغرة وينفع بها من صفت سريرته وصفا ضميره غير مبتغين الاخدمة أهل الطريق ونفعهم وتدوين الحقائق لوجه الله تعالى

واليك البرنامج الذى حدَّدنا به تحديدا دقيقا لاحياد عنه المواضيع التى ستطرقها هذه الرسائل

١ ـ مقتطفات من أقوال وكتابات كبار المتصوفة وغيرهم عن التصوف والصوفية

٢ ـ التصوف وما كان له من شأن فى التاريخ الاسلامى

٣ ـ تاريخ التصوف

٤ ـ آداب الصوفية

٥ ـ تواريخ حياة زعماء الصوفية قديما وحديثاً

٦ ـ الطرق الصوفية : تاريخها . زعماؤها . شيوخها . عملها ومراميها . مستقبلها

٧ ـ الدخلاء والمغرضون وما يعزونه الى الصوفية من المختلقات والأكاذيب

٨ ـ المدّعون البدع

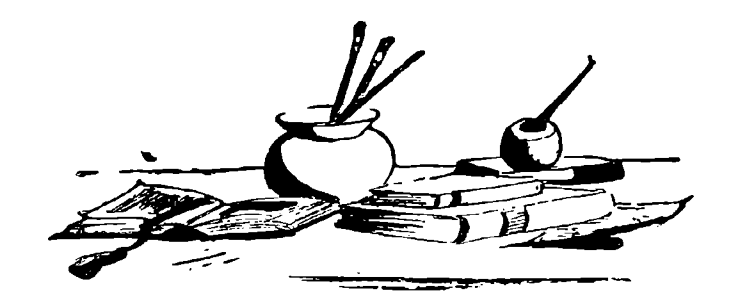
٩ ـ آراء فى الصوفية والتصوف

١٠ ـ أحوال الصوفية فى البلاد الاسلامية

١١ ـ المستشرقون والصوفية

١٢ ـ مقالات مختارة

فاجمالا سوف تكون محتويات الرسائل خاضعة لهذا البرنامج لاتحيد عنه وتفصيلا فستكون كل رسالة مستقلة بقدر الامكان بمحتوياتها سواء كانت هذه المحتويات تطرق موضوعا أو موضوعين أو أكثر مما هو فى حدود البرنامج ، كما ان كل ماينشر سيكون مذيلا بأسماء كاتبيه اومصادره مراعين فى كل ذلك الدقة التامة فى حسن الاختيار والتحقيق والاستقصاء فيما يختص بالمصادر والأصول المنقول عنها . حقق الله أمانى المخلصين وعلى الله الا تكال



حكم ووصايا

الشريف الصالح رضوان الله عليه السيد أحمد الرفاعى الحسينى كتب بها الى الحبر الجليل العريق الأصيل الشيخ عبدالسميع الهاشمى رحمه الله وأمره بحفظها ، وهى من أنفس الذخائر العظيمة لمن وفقه الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله أجمعين والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين من العبد اللاش أحيمد الى الشيخ المحتشم أخينا عبد السميع الهاشمى كان الله لنا وله وللمسلمين آمين (أى أخى) أوصيك بتقوى الله تعالى واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأحب أن تحرص على نصيحتى هذه فهى نافعة لك ولأمثالك ان شاء الله وإياك أن تودعها غير أهلها فتظلمها أى عبد السميع الفقير اذا انتصر لنفسه تعب واذا سلم الأمر الى الله تعالى نصره من غير عشيرة ولا أهل . العقل كنز الفوائد وكيمياء السعادة . العلم شرف فى الدنيا وعز فى الآخرة . ما أقام مع المستعار إلا المحجوب . ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستاجرة كم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس وكم أذهبت من دين ، لفظتان ثلمتان فى الدين القول بالوحدة والشطح المجاوز حد التحدث بالنعمة . دفتر حال الرجل أصحابه . تعب الناس وحسابهم على الرياسة والشهوة وفيهما الغايات. كل حقيقة خالفت الشريعة فهى زندقة . غاية المعرفة بالله الايقان بوجوده تعالى بلا كيف ولامكان . ثقل مرض

الموت أول قناطر المعرفة بالله عند المحجوبين ولهذا قيل لنا موتوا قبل أن تموتوا . حضرة الموت تكشف الحجب كما ورد الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا كل توحيدك قبل تنزيهه تعالى شرك التوحيد وجدان فى القلب يمنع عن التعطيل والتشبيه ، رح وتعال كلك خيال ، انزل يا مسكين عن فرس عجبك ، رب عثرة أوصلت الحفرة ، رب علم ثمرته جهل ورب جهل ثمرته علم كيف يصح لك عز العلم وأنت كسوت علمك ثوب الذل لا تظن أن صبغك يستر شيبك بل غيره وما ستره ، لو خطا الرجل من قاف الى قاف كان جلوسه أفضل ولو تكلم عن الذات والصفات كان سكوته أفضل . من تطاول على الخلق قصر عند الخالق ، من تعالى على العباد سقط من عين المعبود ، كل حال تحوله فيه وكل ظاهر به ما يخفيه ، من ادرع بدرع الصبر سلم من سهام العجلة ، الرجل المتمكن اذا نصب له سنان على أعلى جبل شاهق فى الأرض وهبت عليه رياح الليالى الثمان ما غيرت منه شعرة واحدة . الكاذب يقف مع المبدعات والعاقل غايته وراءها . من كمل أنفت نفسه عن كل شىء غير ربه . الخلق كلهم لا يضرون ولا ينفعون حجب نصبها لعباده فمن رفع تلك الحجب وصل اليه . الاطمئنان بغيره تعالى خوف والخوف منه اطمئنان من غيره . تحت كل حالة حال ربانى لو عرفته لعلمت أنك تسكن به وتسعى به وأنت مسخر . اعملوا فكل ميسر لما خلق له . الصوفى من صفا فلم ير لنفسه على غيره مزية . كل الأغيار حجب قاطعة فمن تخلص منها وصل . الوقت سيف يقطع من قطعه . علامة العاقل الصبر عند المحنة والتواضع عند السعة والأخذ بالأحوط وطلب الباقى سبحانه . علامة العارف كتمان الحال وصحة المقال والتخلص من الآمال . الدنيا والآخرة بين كلمتين عقل ودين . العلم ما رفعك عن

رتبة الجهل وأبعدك عن منزل العزة وسلك بك سبيل أولى العزم . الشيخ من اذا نصحك أفهمك واذا قادك دلك واذا أخذك نهض بك . الشيخ من يلزمك الكتاب والسنة ويبعدك عن المحدثة والبدعة الشيخ ظاهره الشرع وباطنه الشرع . الطريقة الشريعة . لوّث هذه الخرقة كذاب قال الباطن غير الظاهر . العارف يقول الباطن باطن الظاهر وجوهره الخالص . القرآن بحر الحكم كلها ولكن أين الاذن الواعية.رنة النجاح تسمع عند قرع باب الرضا من الله.ارض عن الله ونم مرضيا ولك الامن.ما شم رائحة المعرفة من افتخر بأبيه وأمه وخاله وعمه وماله ورجاله . ليس عند الله على شيء من رأى نفسه . لو عبد الله العابد بعبادة الثقلين وفيه ذرة من الكبر فهو من أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ . ثلاث خصال من كن فيه لا يكون وليا الا اذا طهره الله منهن الحمق والعجب والبخل . أكذب الناس على الله والخلق من رأى نفسه خيراً من الخلق . كل الظلم التعالى على الناس . الظلم حرص الرجل على المراتب الكاذبة الدنيوية ومنها أن يحب الارتفاع على أخيه بكلمة أو جلسة لا حق له بها وعلى ذلك تقاس المراتب. من أخذ الناس بقوته القاهرة ترك فى قلوبهم الضغائن عليه كيف كان ومن أخذ الناس بانكساره ترك فى قلوبهم الاعتراف له عز أو هان.نعم الرفيق فى بلاد الله تقوى الله ونعم المراح الاخلاص . لن يصل العبد الى مرتبة أهل الكمال وفيه بقية من حروف أنا . الشطاح يقف مع شطحه حالة الشطح اذا لم يسقط والكامل لا يشتغل عن خدمته . الدعوى بقية رعونة فى النفس لا يحتملها القلب فينطق بها لسان الاحمق التحدث بالنعمة ذكر . القربية التخلص من تجاوز مرتبة العبدية . العارف لا ينظر الى الدنيا ولا الى الآخرة

كل الـكمال ترك الاغيار وطرح الاستبشـار بحوادث الاكوان والذل بكسوة الفناء بين يدى الحي الذى لا يموت . لا تجعل رواق شيخك حرما وقبره صنما وحاله دفة المـكدية . الرجل من يفتخر به شيخه لا من يفتخر بشيخه من صم سمعه عن أصوات الاغيار سمع نداء لمن الملك اليوم فنزل عن فرس كذبه وعجبه وأنانيته وحوله وقوته ووحدته وانقهر فى مقام عبوديته اياك والقول بالوحدة التى خاض بها بعض المتصوفة إياك والشطح فان الحجاب بالذنوب أولى من الحجاب بالـكفر (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) . اذا رأيت الرجل يطير فى الهواء فلا تعتبره حتى تزن أقواله وأفعاله بميزان الشرع . إياك والانكار على الطائفة فى كل قول وفعل سلم لهم أحوالهم الا اذا ردّها الشرع فـكن معه التكلم بالحقائق قبل هجر الخلائق من شهوات النفوس من عدل عن الحق الى الباطل تبعا لهوى نفسه فهو من الضلال بمكان . أول أبواب المعرفة الاستئناس بالله سبحانه وتعالى والزهد أول قدم القاصدين الى الله عز وجل . من مات محباً مات شهيداً ومن عاش مخلصاً عاش سعيداً وكلا الامرين بتوفيق الله تعالى من سلك الطريق بنفسه أعيد قسراً هـذه الطريقة لا تورث عن الأب والجد انما هى طريقة العمل والجد والوقوف عند الحد وذر الدموع على الخد والادب مع الله تعالى . ظن بعض الجهلة أن هذه الطريقة تنال بالقيل والقال والدرهم والمال وظواهر الأعمال لا والله انما نيلها بالصدق والانـكسار والذل والافتقار واتباع سنة النبى المختار وهجر الاغيار . من اعتز بذى العز عز ومن اعتز بغيره وقف معه بلا عز . كتاب الله آية جامعة اندرجت فيها الآيات الربانيات . من أنعم الله عليه بفهم بواطن كتابه والتزام ظاهر الشرع فقد جمع بين الغنيمتين

ومن أخذ برأيه ضل وانقطع عن الباطن والظاهر ذكر الله جنة من كل نازلة سماوية وحادثة أرضية أجل ان الذاكر جليس الحق فعليه أن يتأدب مع المذكور لكيلا يقطع عن المجالسة التى هى بركة القبول والطهارة من الغفلة . كل إنسان يتكلم مترجما عن حضرة القلب يظهر بضاعتها ويفتح خزانتها فمن طهرت حضرة قلبه طاب لسانه وعذب بيانه فان اعتبر بالفتح السيال على لسانه واعتنى بتطهير حضرة القلب ازداد عرفانه وبرهانه ومن اكتفى بحظ اللسان بقى مع الاقوال قصير الباع عن تناول ثمرات الأفعال . روح جسم المعرفة الانتباه الدائم والسر السليم والقلب الرحيم والقدم الثابت . من الحكمة أن تودع المعروف أهله ومن الصدق أن لا تمنعه غير أهله وثمرة الصنيعين من الله تعالى. اذا أودعت معروفا فلا تكفره فانه ثقيل عند الله تعالى . ما أفلح من دس ولا عز من ظلم ولا يتم حال لباغ ولا يخذل عبد رضى بالله وكيلا ونصيرا . مشكك لا يفلح ودساس لا يصل وبخيل لا يسود وحسود لا ينصر وكلب الدنيا لا يستولى على لحم جيفتها والله محول الأحوال . غارة الله تقصم وتقهر وتدمر وتفعل وتقلب حال مملكة كسروية لكسر قلب عبد مؤمن انتصر بالله . كل الناس يرون أنفسهم فيغان على قلوبهم فالمحمدى يستغفر ويدفع الحجاب والمحجوب يزداد طمساً على طمس والمعصوم من عصمه الله . لا دواء للحمق ولا دافع للحق ولا صحبة للمغرور ولا عهد للغادر ولا نور للغافل ولا إيمان لمن لا عهد له . كتب الله على كل نفس زكية أن تعذب فى الدنيا بايدى الأشرار وألسنة الفجار وكتب على كل نفس خبيثة أن تسىء للمحسن وأن تمكر بالمجمل والعون الالهى محيط بالعبد المخلص المنكسر وما للظالمين من أنصار

علامة العدو أن يرغب بما فى يدك وأن يرغب عنك اذا قل مالك وان يستل سيف لسانه بمغيبتك وأن يكره أن تُمدح فدعه لله فهو عثور على رأسه كالنار تأكل حطبها وكفى بالله نصيرا وعلامة الصديق أن يحبك لله فالصق به فان أهل المحبة لله قليل . أءل كلام بعض الفقراء وكأنك تدرأ الحدود بالشبهات . لو كنت فى زمن الحلاج لافتيت مع من أفتى بقتله اذا صح الخبر ولأخذت بالتأويل الذى يدرأ عنه الحد ولقنعت منه بالتوبة والرجوع الى الله فان باب الرحمن لا يغلق . وهب الله عبادا من عباده رتبا رفيعة أطلع عليها أهل الوهب فمن أدرك سر الله فى طى هذه المواهب تواضع للخلق جميعا فان الخواتيم مجهولة وساحة الكرم وسيعة ولا قيد فى حضرة الوهب يفعل ما يشاء ويختص برحمته من يشاء . (قال) بعض الأعاجم من صوفية خراسان ان روحانية ابن شهربار الصوفى الكبير قدس سره تتصرف فى ترتيب جموع الصوفية فى العرب والعجم الى ما شاء الله ذلك لم يكن الله الوهاب الفعال . النيابة المحمدية عند أهل القلوب ثابتة تدور بنوبة أهل الوقت على مراتبهم وتصرف الروح لا يصح لمخلوق انما الكرم الالهى يشمل أرواح بعض أوليائه بل كلهم فيصلح شأن من يتوسل بهم الى الله قال تعالى « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » هذا الحد إياك وافراط الأعاجم فان فى أعمال بعضهم الاطراء الذى نص عليه الحبيب عليه صلوات الله وسلامه وإياك ورؤية الفعل فى العبد حيا كان أو ميتا فان الخلق كلهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا نعم خذ محبة أحباب الله وسيلة الى الله فان محبة الله تعالى لعباده سر من أسرار الالوهية يعود صفة للحق ونعم الوسيلة الى الله تعالى سر ألوهيته وصفة ربوبيته . الولى من تمسك كل التمسك باذيال النبى ﷺ ورضى بالله وليا .

من اعتصم بالله جل ومن اعتمد على غير الله ذل ومن استغنى بالأغيار قل ومن اتبع غير طريق الرسول ضل . العلم نور والتواضع سرور . الهمة حالة الرجل مع الله يتفاوت علو مرتبة الايمان بعلو الهمة . من أيقن أن الله الفعال المطلق صرف همته عن غيره . من علت فى الله همته صحت الى الله عزيمته وانفصلت عن غير الله هجرته . مائدة الكرم يجلس عليها البر والفاجر . لله عند الخواتيم حنان ولطف على عباده فوق حنان الوالدة على ولدها . ان الله اذا وهب عبده نعمة مما استردها . فيوضات المواهب الالهية فوق مدارك العقول وتصورات الأوهام . من علم أن الله يفعل ما يريد فوض الأمر الى الفعال المقتدر وفرش جبينه على تراب التسليم . كل الحقائق اذا انجلت يقرأ فى صحائفها سطر : كل شيء هالك الا وجهه . اذا أمعنت النظر فى دوائر الأكوان رأيت العجز محيطا بها والافتقار قائما معها ولربك الحول والقوة والغنا والقدرة وحده لاشريك له . مزالق الاقدام الدعوى ورؤية النفس ومعارضة الأقدار . لو كان لك ما ادعيت من الحول والقوة والقدرة لما مت . أين أنت يا عبد الرياسة أنت يا عبد الدعوى على غرة تنحَّ عن رياستك وغرتك والبس ثوب عبديتك وذلتك كل دعواك كاذبة وكل رياستك وغرتك هزل ، القول الفصل قل كل من عند الله . سر بين الحائطين حائط الشرع وحائط العمل . اسلك طريق الاتباع فان طريق الاتباع خير وطريق الابتداع شر وبين الخير والشر بون مرغ خدك على الباب وافرش جبينك على التراب ولا تعتمد على عملك والجأ الى رحمته تعالى وقدرته وتجرد منك ومن غيرك علك تلحق باهل السلامة « الذين آمنوا وكانوا يتقون » بركة العبد الوقت الذى يتقرب به الى الله عز وجل . الأولياء لهم الحرمة

فى الباب الالهى ولولا أن جعل لهم هذه القسمة لما اختصهم دون غيرهم بولايته سبحانه وتعالى هؤلاء حزب الله وجيشه العرمرم الذى أيد الله به الشريعة ونصر به الحقيقة وصان به شرف نبيه ﷺ وألحقه به قال تعالى « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » المعرفة بالله على اقسام وأعظم أقسامها تعظيم أوامر الله تعالى . بين العبد وبين الرب حجاب الغفلة لا غير قال الله تعالى (فاذكرونى أذكركم) . العبد العارف يفزع الى الله ويتوقع سر الله وسر الله العون الناشيء من محض الكرم والفضل من دون سابقة صنع ولا عمل القلب يتقلب بين أصبعى قدرة الرحمن فاسألوا الله أن يثبت القلوب على محبته ودينه وكفى بالله وليا المظاهر البارزة منها ما قيض للخير ومنها ما قيض للشر والمتصرف فيها باريها فالمظهر المقيض للخير يشكر والمظهر المقيض للشر ينكر والله فى الحالين يذكر . لا يتم نظام رجل أقامه الله مظهراً للشر لان الله لو أراد أن يتم نظامه لما أقامه مظهراً فيما يكرهه . دع عنك الاهتمام بتقويم المعوج قبل بروز السانحة المقومة فان سحاب الخير يمطر بابانه ولا يطلب قبل أوانه . لا تسقط همتك بيد همك فتنقلب عن المطالب العلية فان الهم كافور الهمة والاقدام عنبرها والمقضى كائن وغيره لا يكون قف عند أفعالك التى وهبت لك ولا تكلف نفسك تبديل ما اضطررت بفعله ولا تراك مجبوراً أو مختاراً فان الامر بين الامرين . كل ولى يقول ويصول فهو فى حجاب القول والصولة حتى ينقهر تحت سطوة الربوبية ويفيء الى أمر الله فاذا فاء دنا فتدلى بصدقه الى قاب قوسى المتابعة المحمدية وحينئذ تصح له رتبة العبودية التى هى أكمل الرتب واعلاها وأقربها من الله وأدناها واعظمها وسيلة اليه وأقواها وليس للخلق سواها . كل

من اكتحل باثمد التوفيق علم علم اليقين وحق اليقين أن المباطن والمظاهر تحت قهر الباطن الظاهر . صفاء القلب والبصيرة ونفاذ نور البصر يكون من قلة الطعام والشراب لان الجوع يزيل الكبر والتعاظم والتجبر وبه تعذيب النفس حتى تصير مشغولة بالحق وما رأيت شيئا يكسر النفس مثل الجوع قط وأما الشبع فانه يورث قسوة القلب وظلمته وعدم نفاذ نور البصيرة وتكثر بسببه الغفلة . رعاية خواطر الجيران أولى من رعاية خواطر الاقارب لأن الأقارب خواطرهم مجبورة بالقرابة والجيران لا . القلب المنور يميل الى صحبة الصلحاء والعارفين وينفر من صحبة المتكبرين والجاهلين . معاملة عباد الله بالاحسان توصل العبد الى الديان ، والصلاة على رسول الله ﷺ تسهل المرور على الصراط وتجعل الدعاء مستجابا ، والصدقة تزيل غضب الله ، والاحسان للوالدين يهون سكرات الموت صحبة الاشرار والحمق والظلمة وأهل الحسد ظلمة سوداء . العارف من كان على جانب كبير من سلوك طريق الحق مع المواظبة والاستقامة عليه فلا يتركه دقيقة واحدة . الصوفى يتباعد عن الأوهام والشكوك ويقول بوحدانية الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله لأنه ليس كمثله شىء يعلم ذلك علما يقينا ليخرج من باب العلم الظنى وليخلع من عنقه ربقة التقليد . الصوفى لا يسلك غير طريق الرسول المكرم صلى الله عليه وسلم فلا يجعل حركاته وسكناته الا مبنية عليه الصوفى لا يصرف الاوقات فى تدبير أمور نفسه لعلمه أن المدبر الحق عز وجل ولا يلجأ فى أموره ويعول على غير الله تعالى الصوفى يتجنب مخالطة الخلق مهما أمكن لأن الصوفى كلما زاد اختلاطه بالخلق ظهرت عيوبه والتبس عليه الأمر واذا خالط البعض فليختر

لنفسه صحبة الصالحين فان المرء على دين خليله . نفس الفقير مثل الكبريت الأحمر لايصرف إلا بحق لحق . من لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره لم يثبت عندنا فى ديوان الرجال . من علم مايحصل له هان عليه مايبذل . من استقام بنفسه استقام به غيره كيف يستقيم الظل والعود أعوج . الفقيراذا كسر نفسه وذل وانداس واحترق بنار الشوق والصدق وثبت فى ميدان الاستقامة بين يدى الله تعالى صار معدن الخيرات ومقصد المخلوقات وصار كالغيث أين وقع نفع ويكون حينئذ رحمة وسكينة على خلق الله تعالى . ربما اتبع الكاذب وهجر الصادق وكثرت طقطقة النعال حول المغرورين وتباعد الناس عن المتروكين فلا تعجب من ذلك فانه حال النفس تحب القبة المزينة والقبر المنقوش والرواق الوسيع وتألف الشيخ الكبير العمامة الوسيع الكم الكثير الحشمة فسيِّر همة القلب لا همة النفس لكشف هذه الحجب وقل لنفسك لو رايت رسول الله ﷺ على حصيرة وقد أثرت بجنبه الشريف ورأيت اهل بيته رضوان الله وسلامه عليهم لاطعام لهم ولا حشم ثم رايت كسرى العجم على سريره المرصع بالجواهر واليواقيت واهل بيته مستغرقين بالترف والنعيم محاطين بالخدم والحشم أين تكونين ومع اى صنف تنصرفين فلا بد ان وفقها الله ان تحب معية رسول الله ﷺ واهل بيته فقُد بهذا الشأن همة القلب الى اهل الحال المحمدى تحسب فى حزب الله (ألا ان حزب الله هم المفلحون) وإياك ان تنظر حال تقشفك شيئا فان الجوع بلا معرفة وأدب محمدى وصف من أوصاف الكلام فارفع قدرك بالأدب المحمدى الى مراتب أهل الوصلة من صدور القوم ، واقطع عنك رؤيا

العمل واطمس حروف انانيتك فانها بقية ابليس وكن عبداً محضا تفز بقرب سيدك وكفى بالله وليا . تعلق الناس اليوم بأهل الحرف والكيمياء والوحدة والشطح والدعوى العريضة اياك ومقاربة مثل هؤلاء الناس فانهم يقودون من اتبعهم الى النار وغضب الجبار ويدخلون فى دين الله ما ليس منه وهم من جلدتنا اذا رأيتهم حسبتهم سادات الدعاة الى الله تعالى حسبك الله اذا رأيت احداً منهم قل ياليت بينى وبينك بعد المشرقين . جاهل من اهل هذه الخرقة يلحق يدك بيد القوم ويأمرك بذكر الله تعالى وملازمة الكتاب والسنة خير من تلك الطائفة كلها فرّ منهم كفرارك من الاسد وكفرارك من المجذوم قال حذيفة رضى الله تعالى عنه كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت اسأله عن الشر مخافة ان يدركنى فقلت يارسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاء الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر قال نعم قلت فهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال نعم وفيه دخن ، قلت : وما دخنه ؟ قال قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر . قلت : فهل بعد ذلك من شر؟ قال دعاة على ابواب جهنم من اجابهم اليها قذفوه فيها قلت يارسول الله صفهم لنا، قال : هم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا قلت : فما تأمرنى ان أدركنى ذلك ؟ قال تلزم جماعة المسلمين وامامهم . قلت : فان لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك . هذه وصية نبيك الأمين سيدنا وسيد العالمين عليه صلوات الله وسلامه فاحفظها واعمل بها وإياك والتعزز بالطريق فان ذلك من سوء الأدب مع الله والخلق وانما بنى هذا الطريق على التذلل فان القوم ذلوا حتى أتاهم الله بعز علىّ من عنده وافتقروا حتى أتاهم بغنى من فضله ،

واحذر صحبة الفرقة التى من دأبها تأويل كلمات الأكابر . والتفكه بحكاياتهم وما نسب اليهم ، فان أكثر ذلك مكذوب عليهم وما كان ذلك الا من عقاب الله للخلق لما جهلوا الحق وحرصوا على الخير فابتلاهم الله باناس من ذوى الجرأة السفهاء ، فأدخلوا على رسول الله ﷺ احاديث تنزه مقام رسالته عليه الصلاة والسلام عنها ، من المرغبة والمرهبة والغامضة والظاهرة ، وسلط الله ايضا اناسا من اهل البدعة والضلالة فكذبوا على القوم والرجال الاكابر ، وأدخلوا فى كلامهم ما ليس منه فتبعهم البعض فألحقوا بالأخسرين أعمالا . فعليك بالله ، وتمسك للوصول اليه بذيل نبيه عليه الصلاة والسلام ، والشرع الشريف نصب عينيك ، وجادة الاجماع ظاهرة لك . لا تفارق الجماعة أهل السنة ، تلك الفرقة الناجية ، واعتصم بالله ، واترك ما دونه ، وقل فى سرك - أى سيدى - قولى

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والانام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
اذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

ولا تعمل عمل أهل الغلو فتعتقد العصمة فى المشايخ ، أو تعتمد عليهم فيما بينك وبين ربك ، فان الله غيور لايحب أن يدخل فيما آل الى ذاته بينه وبين عبده أحد ، نعم هم أدلاء على الله ، وسائل الى طريقه ، يؤخذ عنهم حال رسول الله ﷺ ، رضى الله تعالى عنهم ورضوا عنه ، نتوسل الى الله برضا الله عنهم ، لا يخزى الله عباده الذين أحبهم وهو أكرم الأكرمين

اترك الفضول ، وانقطع عن العمل بالرأى ، واذا أدركك زمان

رأيت الناس فيه على ما قلناه فاعتزل الناس ، فقد قال عليه الصلاة والسلام « اذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، واعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخويصة نفسك »

تخلق بخلق نبيك : كن لين العريكة ، حسن الخلق ، عظيم الحلم ، وفير العفو ، صادق الحديث ، سخى الكف ، رقيق القلب ، دائم البشر ، كثير الاحتمال والاغضاء ، صحيح التواضع ، مراعيا للخلق ، راعيا حق الصحبة ، متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، كثير الذكر ، طويل السكوت ، صبوراً على المكاره ، متكلا على الله ، منتصراً بالله ، محبا للفقراء والضعفاء ، غضوباً لله اذا انتهكت محارم الله

كل ما وجدت ، ولا تتكلف لما فقدت ، ولا تأكل متكئا ، والبس خشن الثياب كى يقتدى بك الأغنياء ، ولا تحزن بجديد ثيابك قلوب الفقراء . وتختم بالعقيق ، ونم على فراش حشى بالليف أو الحصير أو على الأرض قائما بسنة نبيك ﷺ فى الحركات والسكنات والأفعال والأقوال حسن الحسن وقبح القبيح ، ولا تجلس ولا تقوم الا على ذكره . وليكن مجلسك مجلس حلم وعلم وتقوى وحياء وأمانة ، وجليسك الفقير ، ومواكلك المسكين . ولا تكن سخابا ولا فحاشا ، ولا تذم أحدا ، ولا تتكلم الا فيما ترجو ثوابه ، وأعط كل جليس لك نصيبه ولا تدخر عن الناس ، واحذر الناس واحترس منهم ، ولا تطو عن أحد منهم بشرك ، ولا تشافه أحداً بما يكره . وصن لسانك وسماعك عن الكلام القبيح ، ولا تنهر الخادم ، ولا تردّ من سألك حاجة الا بها أو بما يسرّ من القول . واذا خيرت بين أمرين فاختر أيسرهما ، ما لم يكن مأثما . وأجب دعوة الداعى ، وتفقد أصحابك واخوانك ، واعف

عمن ظلمك ، ولا تقابل على السيئة بالسيئة . وقم الليل با كيا فى الباب ، وطب بالله وحده وكفى بالله وليا

قال امامنا الشافعىّ رضى الله تعالى عنه « من شهد فى نفسه الضعف نال الاستقامة » . وقال « أركان المروءة أربعة حسن الخلق ، والتواضع والسخاء ، ومخالفة النفس » . وقال « التواضع يورث المحبة ، والقناعة تورث الراحة » . وقال « الكيس : العاقل الفطن المتغافل » وقال « انما العلم ما نفع » . فاشهد نفسك بالضعف والفقر تستقم ، وشيد أركان المروءة تحسب من أهلها ، وتواضع واقنع تصر محبوبا مستريحا ، وتغافل تكن كيسا ، وخذ من العلم ما ينفعك إذا أقبلت على ربك ، فان دنياك خيال ، وكلها زوال ، والله محول الأحوال

يا أيها المعدود أنفاسه لا بد يوما أن يتمّ العدد
لا بد من يوم بلا ليلة وليلة تأتى بلا يوم غد

ان الله طوى أولياءه فى برد ستره تحت قبابه ، وحجبهم عن غيره ، لا يعرفهم إلا هو ؛ وهذا الزام بحسن الظن فى الخلق ، فاياك وسوء الظن باحد ، إلا اذا قامت لك عليه حجة شرعية فراع شرع الله من دون انتصار الى نفسك ، آخذا بالاخلاص ، متجردا من غرض نفسك ومرض قلبك . وقبح ما قبحه الشرع ، وحسن ما حسنه الشرع . ولا يكن قولك وفعلك الا لله ، واذا لم تقم لك حجة شرعية على الرجل لا تأخذ الخلق أو تؤاخذهم بالشبهات

عليك بحسن الظن ، فان لله مع الخلق مضمرات أسرار يغار عليها لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى (ولكل وجهة هو موليها) ، فلتكن وجهتك المحجة البيضاء شريعة سيد الأنبياء عليه صلوات الله وسلامه ،

وكفى بربك هاديا ونصيرا

أبى العقل الا اعقال ما بلغه بواسطة الفهم ، وأبى القلب إلا الترقى الى مافوق الفهم ؛ فاجعل همتك قلبية ، وحكمتك عقلية تفلح

فى الكف عرق متصل بالقلب اذا أخذ به شيء من الدنيا تسرى آفتها الى القلب ، وهذه آفة عظيمة مخفية لا يطلع عليها الخلائق ، قال رسول الله ﷺ « حب الدنيا رأس كل خطيئة »

ازهد فى الدنيا ، وتباعد عن لذائذها ، وإياك ونوم الليل كالدابة فان لله فى الليل تجليات ونفحات : يغتنمها أهل القيام ، ويحرم ثمرتها أهل التلذذ بالمنام

قل للمغرور بأمنه ، المتلذذ بنومه ، المشغول القلب عن ربه :

يا نئوم الليـل فى لذته	ان هذا النوم رهن بسهرْ
ليس ينسـاك وان نسيته	طالع الدهر وتصريف الغير
ان ذا الدهر سريع مكره	ان علا حطّ وان أوفى غدر
أوثق النـاس به فى أمنـه	خائف يقرع أبواب الحذر

المشاهدة حضور بمعنى قرب مقرون بعلم اليقين وحق اليقين فمن حماه الله من البعد والغفلة ، وتقرب الى الله بعلم اليقين وحق اليقين بمعنى « اعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » فقد دخل حضرة الشهود وهى هذه لا غير ، وإلا فالمشاهدة لغة لا تصح لمخلوق فى هذه الدار ، وحسبك قصة موسى عليه الصلاة والسلام حضرة المشاهدة لغة ومعنى حضرة اختص بها صاحب قوسين بالقلب والعين والاختلاف فيها معلوم واختصاصه بها عند أهل الله مجزوم . فأدب نفسك بالتقرب اليه تعالى بما يرضيه تحسب من أهل تلك الحضرة

بنص «لا يزال عبدى يتقرب الىّ بالنوافل» الحديث. هدى الله هو الهدى وكفى بالله وليـا . من تمشيخ عليك فتلمذ له ومن مدّ لك يده لتقبلها فقبل رجله وكن آخر شعرة فى الذنب فان الضربة أول ماتقع فى الرأس . إذا بغى عليك ظالم وانقطعت حيلتك عند دفاعه فاعلم أنك حينئذ وصلت بطبعك الى صحة الالتجاء الى الله تعالى فاصرف وجهة قلبك عن غيره وأسقط مرادك فى بابه واترك الامر اليه تنصرف لك مادة المدد فتفعل لك مالا يخطر ببالك وهذا سر التسليم وصدق الالتجاء الى الله . وإن ارتفعت همتك الى الرضا بالقدر كما وقع للامام موسى الكاظم سلام الله عليه ورضوانه حين اعتقله الرشيد غفر الله له وحمله من المدينة الى بغداد مقيدا وحبسه فبقى فى حبسه فلم يفرج عنه حتى مات رضى الله تعالى عنه واخرج ميتـا مسموما وقيده فيه وما انحرف عن قبلة الرضا حتى مات راضيا عن الله فتلك مرتبة الفوز التى درجت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حسـاب ، وقد اندرج أئمة أهل البيت عليهم سلام الله ورضوانه على الرضا الخالص مع قوة الكرامة ورفعة القدر عند الله فقد صح ان عبد الملك بن مروان الأموى حمل الامام عليا زين العابدين سلام الله عليه ورضوانه من المدينة مقيدا مغلولا فى أثقل قيود وأغلظ أغلال فدخل عليه الزهرى رحمـه الله يوادعه فبكى وقال وددت انى مكانك يا ابن رسول الله ﷺ فقال تظن ان ذلك يكربنى لو شئت لما كان وانه ليذكـرنى عذاب الله تعالى ثم أخرج يده ورجليه من القيد ثم أعادها فعلم الزهرى رحمه الله أن الامام حل منزلة الرضا ووصل مقام التسليم المحض ودخل حضرة الفوز العظيم فطاب صدره وسلا حزنه

فزن نفسك فان قدرت على المرتبة العليا وهى رتبة الرضا فافعل والا فانزل الى المرتبة الثانية التى هى مرتبة صدق الالتجاء الى الله مع قطع النظر عن تدبيرك وحولك وقوتك وكلك وجزئك وهو تعالى يفعل لك بنصره وقدرته فوق ارادتك وتدبيرك وكفى بالله نصيرا

اذا هرعت الى الله والتجأت اليه فاجعل وسيلتك حبيبه ﷺ صل عليه وسلم تسليما وأكثر من الصلاة والسلام عليه مهما أمكنك وقف فى باب الله بالعمل بسنته عليه الصلاة والسلام واسأل الله سبحانه معتمدا عليه تعالى مستعينا به متوكلا عليه واذا أغلقت عليك الأبواب فترقب من الفتاح فتح الباب فما سد الخلق طريقا الا وفتحه الخالق انفرادا بربوبيته وتعززا بالوهيته فلا تقنط من رحمته ولا تياس من روحه وعليك به وكفى بالله وليا التوفيق فى جميع الأحوال انما هو من الله سبحانه وتعالى دع هم الحسود فهمه بك همك به خل جانب الأحمق فكدرك به فوق كدره بنفسه . لازم مجالس العقلا . خذ الحكمة أين رأيتها فان العاقل يأخذ الحكمة لايبالى على أى حائط كتبت وعن أى رجل نقلت ومن أى كافر سمعت . هذه الدنيا خلقت للعبرة والعبرة بكل مافيها عقل فخذ بقوة عقلك العبرة من كل مأخذ واصرف نظرك عن محلها . إياك والتقرب من أهل الدنيا فان التقرب منهم يقسى القلب والتواضع لهم موجب لغضب الرب وتعظيمهم يزيد فى الذنوب . اتخذ الفقراء أصحابا وأحبابا وعظمهم وكن مشغولا بخدمتهم واذا جاء لك واحد منهم فانتصب له على أقدامك وتذلل له واذا وقعت خدمتك لدى الفقراء موقع القبول فاسألهم الدعاء الصالح واجتهد أن تعمر لك مقاما فى قلوبهم فان قلوب الفقراء مواطن الرحمة ومواقع النظر القدسى . وصف خاطرك من الرعونات البشرية . ومن كان لك عليه حق أو له

عليك حق فداره حتى يعطيك حقك أو الى أن تعطيه حقه وان قدرت فسامح من لك عليه حق يعوض الله عليك وكن مع الخلق بالأدب فانه أدب مع الخالق . تب بكليتك من رؤية نفسك ونسبك وأهلك فان من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . قم بصلة رحم رسول الله ﷺ . عظم ذوى قرابته فان طوق منته فى أعناقنا قال تعالى (قل لا أسئلكم عليه أجراً الا المودة فى القربى) صحح الحب لجميع أصحابه رضوان الله وسلامه عليه فانهم مصابيح الهدى ونجوم الاقتدا (قال) عليه الصلاة والسلام أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهديتم . خف الله خف الله رأس الحكمة مخافة الله عليك بتقوى الله فانها جماع كل خير هذه نصيحتى لك أى أخى أخذتنى سكرة التعليم الا أنى جربت الزمان وأهله وعاركت النفس وخدمت الشرع وانتفعت بصحبة أهل الصفاء فاقبل نصيحتى فانها ان شاء الله نشأت باخلاص عن حب لك رب حامل فقه الى من هو أفقه منه . أى عبد السميع اعمل بنصيحتى ولا ترانى رجلا ان قال لك قائل ان فى مملكة الرحمن مخلوقا هو أضعف من هذا اللاش أحيمد فلا تصدقه بلى أقول يسر الله علىّ وعليك الطريق وجعلنا وإياك والمسلمين من المصطفين الأخيار والمخلصين الابرار أحباب الله ورسوله ﷺ وكفى بالله وليا والحمد لله رب العالمين

﴿ انتهى ﴾ ماأفاضه بفيض الله سيدنا الغوث الكبير والعلم الشهير السيد الشيخ أحمد الرفاعى الكبير رضى الله تعالى عنه من الحكم المعنوية والنصائح الدينية الجامعة بين أسرار الطريقة والحقيقة والشريعة التى هى أصح طريقة رضى الله تعالى عنه وعن أولياء الله أجمعين



مقتطفات

من كتاب التعليم والارشاد

للمغفور له صاحب السماحة والسيادة العلامة والمنطيق الفهامة

السيد محمد توفيق البكرى

فصل فى آداب المرشد فى التربية والتعليم

قال الله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقال ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال على رضى الله عنه : قيمة كل امرىء ما يحسنه . ومعناه أنه اذا أردت أن تعرف قيمة شخص فجرده فى فكرك مما عليه من الألقاب والمال والجاه وانظر اليه بعد ذلك تعرف قيمته الحقيقية العالم الدينى هو وارث الأنبياء فيجب أن يكون عمله عمل الأنبياء من تعليم الدين والارشاد والدعوة له حتى يظهر أثره فى قومه وآداب المعلم المرشد كثيرة

منها : أن يسلك فى التربية طريق التدريج من البسيط الى ماهو أرقى منه وان لا يحمل الذهن أكثر من طاقته فانه كالمعدة اذا حملت أكثر من اللازم لها لم تهضمه ولم تنتفع منه

ومنها : أن يربى فى المريد ملكة الاجتهاد والنظر لا مجرد التقليد والتسليم بلا اعمال فكر وروية فان هذه الطريقة الأخيرة تجعل التلميذ

نسخة من المعلم لا تتغير ولا تتقدم مدى الأجيال . وكذلك يربى فيه ملكة التحصيل لا مجرد الفهم

ومنها : أن يلاحظ أخلاق المعلم كما يلاحظ علمه واذا نصحه للرجوع عن عيب صغير فيكون بلطف وفى غير محفل فان النصح فى المحفل مهين له والتصريح يهتك حجاب الهيبة والحياء ويورث الجرأة على المنهيات بل يهيج الحرص على الاصرار وربما مزج له النصيحة بشىء من التلطيف كالسكر الذى يوضع على الماء

ومنها أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يصل الخبر الى نفس المريد من طريق اذنه على غير ما وصلها من طريق بصره فلا تتأثر ولا تنهض لتصديق الأمر أو العمل به

ومنها أن لا يذم العلوم التى لايعلمها فيصرف نفوس المريدين عن أمور أخرى نافعة قد يحصلون عليها من غيره

ومنها : أن يصحب التعليم بالعمل فمن علمه بأن الغيبة حرام فرآه يغتاب أسكته ومن نهاه عن شرب الدخان مثلا لأنه مضر بالصحة فليأخذ الدخان منه ويطرحه . أو من أمره بالنظافة فرآه قذراً فلا يكلمه حتى ينظف نفسه وهكذا

ومنها : أن يراقب المريدين دائماً ويخالطهم ويحاسبهم حتى لاينقطع عنهم أثر إرشاده مدى العمر . فان عهد الطريق معناه هو هذه الرابطة وتسلسله الى الرسول معناه انتهاء الارشاد اليه ﷺ

فصل فى آداب المريد

أداب المريد كثيرة منها : صدق النية فانه ان صدق فى النية فقلما

يخيب فى الوصول الى غايته من العلم والتربية . ومن طلب شيئا وجده، ومن تركه فقده

ومنها : المواظبة والصبر . فان العمل القليل الدائم خير من الكثير المنقطع

ومنها : خزن ما يعلمه فى صدره وعدم تركه يمر عليه بلا تقيد به ، فيذهب تعبه فى الفهم والتحصيل عبثا كمن يصيد الطيور ثم يطلقها

ومنها : عدم المبالاة بكلام البعض فى ذم ما يراه العقلاء نافعا مفيداً من العلوم فان الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى « وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » وقال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض　　يجد مراً به الماء الزلالا

ومنها : أن لا يتكلم فى مسألة ولا يخوض فى موضوع لمجرد الشقشقة والفخفخة والجدل بل لطلب حقيقة ذلك والوقوف عندها

ومنها : أن لا يضحى العلوم التى هى غايات للعلوم التى هى وسائل بل يأخذ الأهم فالأهم ثم يختص بفن اذا أراد . فانه لا يفوق الا بهذا الاختصاص

ومنها : النظر فى ما هو عليه من مساوىء الأخلاق التى تخالف ما قرأه وما علمه « ويعلم ذلك بالمراقبة ومن ألسنة أعدائه » فيعمل فى ازالة ذلك ويتجرع لتركه الغصص فى الأول حتى يتعود على تركه بالمرة .

فصل فى الطريق الى تهذيب الأخلاق

قد عرف أن الاعتدال فى الأخلاق فى مزاج البدن هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها كما أن الاعتدال فى مزاج البدن

هو صحة له والميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتخذ مثالا فنقول مثال النفس فى علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة اليها مثال البدن فى علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها اليه وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم فاذا كملت وكانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة اليها واكتساب زيادة صفائها وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها كذلك علاج علل النفس يكون بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخى ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا ولا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات ليتم بذلك معالجة علل النفس إنما يلزم الشيخ المتبوع الذى يطيب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف من فن مخصوص وفى طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم كما أن طبيب البدن لو يعالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم بل ينبغى للشيخ أن ينظر فى مرض المريد وفى حالته وسنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة فان كان المريد مبتدئا جاهلا بحدود الشرع فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات وان كان مقارفا لمعصية فيامره أن يتركها فاذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصى الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال الى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه فيعامله بحسب ما يتراءى له من المعالجة المؤدية الى الغرض

المقصود وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض وانما الغرض التنبيه على أن الطريق الكلى فيه سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس وتميل اليه من الرذائل، وقد جمع الله ذلك كله فى كتابه العزيز فى كلمة واحدة فقال تعالى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » والأصل المهم فى المجاهدة الوفا بالعزم فاذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ومن جد وجد

فصل فى جمل من أخلاق النبى ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ قالت عائشة رضى الله عنها كان خلقه القرآن . تعنى التأدب بآدابه والتخلق بمحاسنه والالتزام باوامره وزواجره ، وقد قال ﷺ بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وقال أنس كان النبى ﷺ أحسن الناس خلقا وكان عليه السلام أرجح الناس حلما . وقال أيضا : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط وما قال لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته وروى أنه لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقالوا لو دعوت عليهم ، فقال : انى لم أبعث لعانا ولكنى بعثت داعيا ورحمة اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون . وكان ﷺ أعظم الناس عفواً لا ينتقم لنفسه . ولما تصدى له غورث بن الحارث ليقتله والسيف فى يده وقال لرسول الله من يمنعك منى ؟ قال له : الله فسقط السيف من يده فقال عليه الصلاة والسلام ـ وقد أخذ السيف ـ من يمنعك منى ؟ فقال كن خير آخذ فتركه وعفا عنه فجاء الى قومه فقال جئتكم من عند خير الناس . وعفا عليه السلام عن اليهودية التى سمته فى الشاة بعد

اعترافها على الصحيح ، ولم يؤاخذ لبيد بن الأعصم اذ سحره وكان ﷺ أسخى الناس كفا ما سئل شيئا فقال لا وأعطى صفوان بن أمية غنما ملأت واديا بين جبلين فقال أرى محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر . ورد على هوازن سباياهم وكانت ستة آلاف وأعطى العباس من الذهب مالم يطق حمله وحملت اليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام اليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها وذكر عن معوذ ابن عفراء قال أتيت النبى ﷺ بقناع من رطب يعنى طبقا قثاء فأعطانى ملء كفه حليا وذهبا . وكان ﷺ أشجع الناس وقال ابن عمر ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ وقال على ابن أبى طالب كنا اذا حمى الوطيس أو اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا الى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا وقيل كان الشجاع هو الذى يقرب منه ﷺ لقربه من العدو وكان ﷺ اشد الناس حياء قال أبو سعيد الخدرى كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان اذا كره شيئا عرفناه فى وجهه وعن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ اذا بلغه عن احد مايكرهه لم يقل مابال فلان يقول كذا ولكن يقول مابال اقوام يصنعون ويقولون كذا ينهى عنه ولا يسمى فاعله وعن انس رضى الله عنه انه عليه السلام كان لا يواجه احداً بما يكره وعن عائشة رضى الله عنها قالت لم يكن النبى ﷺ فاحشا ولا متفحشا ولا سخابا بالاسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح وعنها مارأيت فرج رسول الله ﷺ قط وكان أوسع الناس صدراً وأصدق

الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة

وعن قيس بن سعد قال زارنا رسول الله ﷺ فلما أراد الانصراف قرب سعد له حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ، ثم قال سعد : يا قيس اصحب رسول الله ﷺ قال قيس فقال لى رسول الله ﷺ اركب فأبيت ، فقال اما أن تركب واما أن تنصرف فانصرفت . وفى رواية اركب أمامى فصاحب الدابة أحق بمقدمها . وعن عائشة رضى الله عنها فى حديث عنه ﷺ أنه ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته الا قال لبيك . وقال جرير ما حجبنى رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رآنى الا تبسم . وكان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويلاعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر . وقال أنس ما أخذ بيد أحد فيرسل يده حتى يرسلها الآخذ ولم ير مقدما ركبته بين يدى جليس له وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة ولم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد ويكرم من يدخل عليه وربما يبسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التى تحته ويعزم عليه فى الجلوس عليها ان أبى ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمه لهم ولا يقطع على أحد حديثه وروى أنه كان لا يجلس اليه أحد وهو يصلى الا خفف صلاته ويسأله عن حاجته فاذا فرغ عاد الى صلاته وكان أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب قال عبد الله بن الحارث ما رأيت أحداً أكثر تبسما من رسول الله ﷺ وأما شفقته ﷺ على خلق الله ورأفته بهم ورحمته لهم فقد قال الله تعالى فيه عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف

رحيم وقال وما أرسلناك الا رحمة للعالمين قال بعضهم من فضله عليه السلام ان الله أعطاه اسمين من أسمائه فقال بالمؤمنين رؤوف رحيم ومن ذلك تخفيفه وتسهيله عليهم وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم كقوله لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء ونهيتهم عن الوصال وكراهته دخول الكعبة ليلا لئلا يعنت أمته وانه كان يسمع بكاء الصبى فيتجاوز فى صلاته ولما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام فقال ان الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد أمر الملك لتأمره بما شئت فيهم فناداه الملك وسلم عليه وقال مرنى بما شئت فيهم إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين قال النبى ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا

وروى ابن المنكدر ان جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ ان الله أمر الأرض والسماء والجبال ان تطيعك فقال أؤخر عن أمتى لعل الله أن يتوب عليهم قالت عائشة ماخير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما . وقال ابن مسعود كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا وروى أنه عليه السلام قال لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا فانى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر وكان ﷺ أوصل الناس لرحم وأقومهم بالوفاء وقال عبد الله بن أبى الحمساء بايعت النبى ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ثم نسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئته فاذا هو فى مكانه فقال لقد شققت علىّ أنا ها هنا منذ ثلاثة أنتظرك . وعن أنس رضى الله عنه كان النبى ﷺ اذا أتى بهدية قال اذهبوا بها الى بيت فلانة فانها كانت صديقة لخديجة انها كانت تحب خديجة . وعن ابى قتادة جاء وفد للنجاشى

فقام النبى ﷺ يخدمهم فقال له أصحابه نكفيك فقال انهم كانوا لأصحابنا مكرمين وانى أحب ان أ كافئهم ولما جىء باخته من الرضاعة الشيما فى سبى هوازن بسط لها رداءه وخيرها بين المقام عنده والتوجه الى أهلها فاختارت قومها وكان ﷺ أشد الناس تواضعاً على علو منصبه فمن ذلك ان الله خيره بين أن يكون نبياً ملكا أو نبياً عبداً فاختار أن يكون نبياً عبداً فقال له الملك عند ذلك فان الله قد أعطاك بما تواضعت له انك سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشق عنه الارض وأول شافع وخرج على قوم من أصحابه فقاموا له فقال لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً وقال انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد واجلس كما يجلس العبد وكان يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس وقال لامرأة أتته فى حاجة اجلسى يا أم فلان فى أى طرق المدينة شئت اجلس اليك حتى أقضى حاجتك فجلست وجلس وكان يدعى الى خبز الشعير والاهالة السنخة فيجيب وحج على رحل رث عليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم وأهدى فى حجه ذلك مائة بدنة وكان يبدأ من لقيه بالسلام وعن أنس أنه مر على صبيان فسلم عليهم وكان فى بيته فى مهنة أهله يحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه ويقم البيت ويعقل البعير ويأكل مع الخادم ويحمل بضاعته من السوق وعن أنس أنه كانت الأمة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت تقضى حاجتها وكان ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة لما عرفوا من أمانته وعدله وعن الربيع بن خسيم قال كان يتحاكم الى رسول الله ﷺ فى الجاهلية قبل الاسلام وقال النضر بن الحارث لقريش قد

كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضا كم فيكم وأصدقكم حديثاً واعظمكم أمانة حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر لا والله ماهو ساحر وكان ﷺ يحب الطيب والرائحة الطيبة الحسنة ويستعملها كثيراً ويحض عليها . وأما زهده فى الدنيا فقد توفى ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله وكان يدعو اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً قالت عائشة رضى الله عنها ماشبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعا من خبز بر حتى مضى لسبيله وفى رواية من خبز شعير يومين متواليين وقالت ماترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا قالت ولقد مات وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد الا شطر صاع شعير فى رف لى وقال انى عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهباً فقلت لا يارب بل أجوع يوماً وأشبع يوما فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع اليك وأدعوك وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كان ﷺ يبيت هو وأهله الليالى المتتابعة طاويا لا يجدون عشاء ، وكان يقول لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً . وفى حديث المغيرة : صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه . وقال عوف بن مالك : كنت مع رسول الله ﷺ ليلة فاستاك ثم توضأ فقمت معه فبدأ فاستفتح البقرة فلا يمر بآية رحمة الا وقف وسأل ولا آية عذاب الا وقف فتعوذ ، ثم ركع . فمكث بقدر قيامه يقول سبحان ذى الجبروت والملكوت والعظمة ثم سجد وقال مثل ذلك ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة . وقال رسول الله ﷺ : انى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة

فصل فى الكرم

قال الله تعالى (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء) اول ما ذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة السخاء وقال الله تعالى « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً » وقال رسول الله ﷺ طعام الواحد يكفى الاثنين وطعام الاثنين يكفى الأربعة وطعام الاربعة يكفى الثمانية . رواه مسلم وقال ﷺ : قال الله عز وجل يابن آدم أنفق أنفق عليك وقال ﷺ قال جبريل قال الله عز وجل : ان هذا دين ارتضيته لنفسى ولا يصلحه الا السخاء وحسن الخلق فاكرموه بهما ما استطعتم وقال ﷺ : ما جبل الله عز وجل وليا له الا على السخاء وحسن الخلق وقيل يا رسول الله أى الايمان أفضل قال الصبر والسماحة وقال ﷺ يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى لتعيشوا فى أكنافهم فانى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فانى جعلت فيهم سخطى . وقال ﷺ ان الله جواد يحب الجواد ويحب معالى الأخلاق ويكره سفاسفها وقال ﷺ طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء . وقال ﷺ ان السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار وان البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار وقال ﷺ : ان بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدر والنصح للمسلمين وقال ﷺ : كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة وما وقى الرجل به عرضه فهو له

صدقة وما أنفق الرجل نفقة فعلى الله تعالى خلفها . وعن أنس رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال للزبير : يا زبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بازاء العرش يبعث الله تعالى الى كل عبد بقدر نفقته فمن كثر كثر له ومن قلل قلل له . وقال النبي ﷺ : اصطناع المعروف يقى مصارع السوء وقال عليه الصلاة والسلام إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق ويبغض سفسافها وقال النبي ﷺ : لقوم من العرب من سيدكم قالوا الحر بن قيس على بخل فيه فقال ﷺ : وأى داء أدوأ من البخل وقال الله تعالى « ومن يق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وقال أكثم بن صيفى حكيم العرب ذللوا أخلاقكم للمطالب وقودوها الى المحامد وعلموها المكارم ولا تقيموا على خلق تذمونه من غيركم وصلوا من رغب اليكم وتحلوا بالجود يلبسكم المحبة ولا تعتقدوا البخل فتتعجلوا الفقر (أخذه الشاعر وقال) :

أمن خوف فقر تعجلته ... وأخرت انفاق ما تجمع

فصرت الفقير وأنت الغنى ... وما كنت تعدو الذى تصنع

وكتب رجل من البخلاء الى رجل من الأسخياء يأمره بالابقاء على نفسه ويخوفه بالفقر فرد عليه : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » وانى أكره أن أترك أمراً قد وقع لأمر لعله لا يقع

وكان خالد بن عبد الله القسرى يقول على المنبر : أيها الناس عليكم بالمعروف فان الله لا يعدم فاعله جوازيه وما ضعفت الناس عن أدائه قوى الله على جزائه . وأخذه من قول الحطيئة

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

واخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة يقول الله تعالى فيما أنزله الله على داود عليه السلام « من يفعل الخير يجده عندى لا يذهب العرف بينى وبين عبدى »

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر : من رزقه الله رزقاً حسنا فلينفق منه سراً وجهراً حتى يكون أسعد الناس به فانما يترك ما ترك لأحد رجلين أما المصلح فلا يقل عليه شيء وأما المفسد فلا يبقى له شيء (أخذه الشاعر فقال) :

اسعد بمالك فى الحياة فانما يبقى خلافك مصلح أو مفسد
فاذا جمعت لمفسد لم يغنه وأخو الصلاح قليله يتزيد

وقال أبو ذر : ان لك فى مالك شريكين الحدثان والوارث فان استطعت أن لا تكون أخس الشركاء فافعل . وقال بزرجمهر الفارسى : اذا أقبلت عليك الدنيا فانفق منها فانها لا تبقى (أخذ الشاعر هذا المعنى فقال) :

لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وان تولت فاحرى أن تجود بها فالحمد منها اذا ما أدبرت خلف

وكان كسرى يقول : عليكم بأهل السخاء والشجاعة فانهم أهل حسن الظن بالله ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضر بخلهم ومذمة الناس لهم واطباق القلوب على بغضهم الا سوء ظنهم بربهم فى الخلف لكان عظيما . وأخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال :

من ظن بالله خيراً جاد مبتدئاً والبخل من سوء ظن المرء بالله

محمد بن يزيد بن عمر بن عبد العزيز قال : خرجت مع موسى الهادى أمير المؤمنين من جرجان فقال لى : إما أن تحملنى وإما أن أحملك

ففهمت ما أراد فأنشدته أبيات ابن صرحة الأنصارى :

أوصيكم بالله أول وهلة وأحسابكم والبر بالله أول
وان قومكم سادوا فلا تحسدوهم وان كنتم أهل السيادة فاعدلوا
وان أنتم أعوزتمو فتعففوا وان كان فضل المال فيكم فافضلوا

فامر لى بعشرين ألفاً وقال عبد الله بن عباس : سادات الناس فى الدنيا الأسخياء وفى الآخرة الأتقياء . وقال أبو مسلم الخولانى : ماشىء أحسن من المعروف إلا ثوابه وما كل من قدر على المعروف كانت له نية فاذا اجتمعت القدرة والنية تمت السعادة وأنشد :

ان المكارم كلها حسن والبذل أحسن ذلك الحسن
كم عارف بى لست أعرفه ومخبر عنى ولم يرنى
يأتيهم خبرى وان بعدت دارى وبوعد عنهم وطنى
انى لحر المال ممتهن ولحر عرضى غير ممتهن

وقال خالد بن عبد الله القسرى : من أصابه عراب مركبى وجب على شكره . وقال عمرو بن العاصى : والله لرجل ذكرنى ينام على شقه مرة وعلى شقه أخرى يرانى موضعاً لحاجته لأوجب على حقاً . وقال عبد العزيز بن مروان : اذا أمكننى الرجل من نفسه حتى أضع معروفى عنده فيده عندى أعظم من يدى عنده . وأنشد لابن عباس رضى الله تعالى عنهما :

اذا طارقات الهم ضاجعت الفتى واعمل فكر الليل والليل عاكر
وباكرنى فى حاجة لم يجد لها سواى ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجت بمالى همه عن خناقه وزاوله الهم الطروق المساور
وكان له فضل على بظنه بى الخير أنى للذى ظن شاكر

وقيل لأبى عقيل البليغ العراقى : كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة اليه ؟ قال رأيت رغبته فى الانعام فوق رغبته فى الشكر وحاجته الى قضاء الحاجة أشد من حاجة صاحب الحاجة وقال زياد : كفى بالبخل عاراً أن اسمه لم يقع فى حمد قط وكفى بالجود مجداً أن اسمه لم يقع فى ذم قط . وقال آخر :

ألا ترانى وقد قطعتنى عذلا ماذا من الفضل بين البخل والجود
إلا يكن ورق يوما أراح به للخابطين فانى لين العود
لا يعدم السائلون الخير أفعله اما نوالا واما حسن مردود

قوله : لا يكن ورق يريد المال وضربه مثلا ويقال أتى فلان يختبط ما عنده والاختباط ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله السائبة فجعل طالب الرزق مثل الخابط . وقالت أسماء بنت خارجة ما أحب أن أرد أحداً فى حاجة طلبها لأنه لا يخلو أن يكون كريما فاصون له عرضه أو لئيما فأصون عرضى عنه (وقال ارسطاطاليس من انتجعك من بلاده فقد ابتدأك بحسن الظن بك والثقة بما عندك وقال النبى ﷺ اذا أردتم ان تعلموا ما للعبد عند ربه فانظروا ما يتبعه من حسن الثناء . وكتب عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الى ابى موسى الأشعرى : اعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك . وقيل لبعض الحكماء : ما افادك الدهر قال العلم به قال فما أحمد الاشياء قال ان تبقى للانسان احدوثة حسنة . وقال بعض أهل التفسير فى قول الله تعالى « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » انه أراد حسن الثناء من بعده . وقال اكثم بن صيفى : انما انتم أخبار فطيبوا أخباركم ، أخذ هذا المعنى حبيب الطائى فقال :

وما ابن آدم الا ذكر صالحة　　أو ذكر سيئة يسرى بها الكلم
أما سمعت بدهر باد أمته　　جاءت بأخبارها من بعدها أمم

وقالوا الايام مزارع فما زرعت فيها حصدته « ومن قول بعضهم فى هذا المعنى وغيره من مكارم الاخلاق » :

يامن تجلد للزما　　ن أما زمانك منك أجلد
سلط نهاك على هوا　　ك وعدَّ يومك ليس من غد
ان الحياة مزارع　　فازرع بها ما شئت تحصد
والناس لايبقى سوى　　آثارهم والعين تفقد
أو ماسمعت بمن مضى　　هذا يذم وذاك يحمد
المـال ان أصلحته　　يصلح وان أفسدت يفسد

وقال الاحنف بن قيس : ماأدخرت الآباء للابناء ولا أبقت الموتى للاحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوى الاحساب . وقالوا: تربيب المعروف أولى من اصطناعه لأن اصطناعه نافلة وتربيبه فريضة وقالوا : أحى معروفك بأماتة ذكره وعظمه بالتصغير له . وقالت الحكماء : من تمام كرم المنعم التغافل عن حجته والاقرار بالفضيلة لشاكر نعمته وقالوا للمعروف خصال ثلاث تعجيله وتيسيره وتستيره فمن أخل بواحدة منها فقد بخس المعروف حقه وسقط عنه الشكر . وقيل لمعاوية : أى الناس أحب اليك قال من كانت له عندى يد صالحة . قيل فان لم تكن له قال فمن كانت لى عنده يد صالحة وقال النبى ﷺ : من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه فان لم يقم بتلك المؤنة عرض النعمة للزوال . ابن المبارك . عن حميد عن الحسن قال لان أقضى حاجة لأخ لى أحب الى من عبادة سنة . وقال ابراهيم بن السندى قلت لرجل

من أهل الكوفة من وجوه أهلها كان لا يجف لبده ولا يستريح قلبه ولا تسكن حركته فى طلب حوائج لرجال وادخال المرافق على الضعفاء فقلت له أخبرنى عن الحالة التى خففت عليك النصب وهونت عليك التعب فى القيام بحوائج الناس ماهى قال والله قد سمعت تغريد الطير بالاسحار فى فروع الأشجار وسمعت خفق اوتار العيدان وترجيع أصوات القيان فما طربت من صوت قط طربى من ثناء حسن بلسان حسن على رجل قد أحسن ومن شكر حر لمنعم حر ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر قال ابراهيم فقلت له لله ابوك لقد حشيت كرما اسماعيل بن مسرور : عن جعفر بن محمد قال ان الله خلق خلقاً من رحمته برحمته لرحمته وهم الذين يقضون الحوائج للناس فمن استطاع منكم ان يكون منهم فليكن

وقال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن الانصار « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وقال النبى ﷺ أفضل العطية ما كان من معسر الى معسر وقال عليه الصلاة والسلام أفضل العطية جهد المقل . وقالت الحكماء القليل من القليل أحمد من الكثير الى الكثير . اخذ هذا المعنى حبيب فنظمه فى أبيات كتب بها الى الحسن بن وهب الكاتب وأهدى اليه قلمه

قد بعثنا اليك أكرمك الله بشيء فكن له ذا قبول
لا تقسه الى جدا كفك الغرا ولا نيلك الكثير الجزيل
واستجز قلة الهدية منى ان جهد المقل غير القليل

وقالوا : جهد المقل أفضل من غنى المكثر وقال صريع الغوانى :

ليس السماح لمكثر من قومه لكن لمقتر قومه المتحمد

وقال أبو هريرة : ما وددت أن أحداً ولدتنى أمه إلا ام جعفر بن

أبى طالب تبعته ذات يوم وأنا جائع فلما بلغ الباب التفت فرآنى فقال لى ادخل فدخلت ففكر حيناً فما وجد فى بيته شيئاً الا نحيا كان فيه سمن فأنزله من رف لهم فشقه بين أيدينا فجعلنا نلعق ما كان فيه من السمن وهو يقول :

ما كلف الله نفساً فوق طاقتها ولا تجود يد الا بما تجد

وقيل : لبعض الحكماء من أجود الناس قال : من جاد من قلة وصان وجه السائل عن المذلة . وقال حماد عجرد :

أبرق بخير نؤمل للجزيل فما ترجى الثمار اذا لم يورق العود
بث النوال ولا تمنعك قلته فكل ما سد فقراً فهو محمود
وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

وقال حاتم :

أضاحك ضيفى قبل انزال رحله ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للاضياف أن يكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب

وقال عبد الملك بن مروان : ما كنت أحب أن أحداً ولدنى من العرب الا عروة بن الورد لقوله :

اتهزأ منى ان سمنت وان ترى بجسمى مس الحق والحق جاهد
لانى امرؤ عافى انائى شركة وأنت امرؤ عافى انائك واحد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

ومن أحسن ما قيل فى الجود مع الاقلال :

فلو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

ومن أفرط ما قيل فى الجود قول بكر بن البطاح :

اقول لمرتاد الغنى عند مالك تمسك بجدوى مالك وصلاته
فتى جعل الدنيا وقاء لعرضه فاسدى بها المعروف قبل عداته
فلو خذلت أمواله جود كفه لقاسم من يرجوه شطر حياته
وان لم يجز فى العمر قسم لمالك وجاز له أعطاه من حسناته
وجاد بها من غير كفر بربه وأشركه فى صومه وصلاته

وقال آخر فى هذا المعنى وأحسن :

ملأت يدى من الدنيا مراراً وما طمع العوازل فى اقتصادى
ولا وجبت علىّ زكاة مال وهل تجب الزكاة على الجواد

وقال النبى ﷺ : الناس كابل مائة لاتكاد تجد فيها راحلة . وقالت الحكماء الكرام فى اللئام كالغرة فى الفرس . وقال الشاعر :

فان أك فى شراركم قليلا فانى فى خياركم كثير
بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الباز مقلات نذور

وقال السموأل :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها ان الكرام قليل
وماضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

وقال حبيب :

ولقد يكون ولا كريم تناله حتى يخوض اليه ألف لئيم

وقال ابن أبى حازم :

وقالوا لو مدحت فتى كريما فقلت وكيف لى بفتى كريم
بلوت ومربى خمسون حولا وحسبك بالمجرب من عليم
فلا أحد يعد ليوم خول ولا أحد يعود على عديم

وقال دعبل :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم   والله يعلم أنى لم أقل فندا
انى لأغلق عينى ثم أفتحها   على كثير ولكن ما أرى أحدا

وأحسن ما قيل فى هذا المعنى قول حبيب الطائى

ان الجياد كثير فى البلاد وان   قلوا كما غيرهم قل وان كثروا
لا يدهمنك من دهمائهم عجب   فان جلهم أو كلهم بقر
وكلما أضحت الأخطار بينهم   هلكى تبين من أضحى له خطر

نزل اعرابى برجل من أهل البصرة فأكرمه وأحسن اليه ثم أمسك فقال الاعرابى :

تسرى فلما جاشت المرء نفسه   رأى انه لا يستقيم له السرر

وكان يزيد بن منصور يجرى لبشار العقيلى وظيفة فى كل شهر ثم قطعها عنه فقال :

ابا خالد ما زلت سابح غمرة   صغيراً فلما شبت خيمت بالشاطى
جزيت زمانا سابقاً ثم لم تزل   تأخر حتى جئت تقطو مع القاطى
كسنور عبد الله بيع بدرهم   صغيراً فلما شب بيع بقيراط

وقال مسلم بن الوليد صريع الغوانى لمحمد بن منصور بن زياد :

أبا حسن قد كنت قدمت نعمة   وألحقت شكراً ثم أمسكت وانيا
لا ضير لم تلحقك منى ملامة   أسأت بنا عوداً وأحسنت باديا
فاقسم لا أجزيك بالسوء مثله   كفى بالذى جازيتنى لك جازيا

قدم الحرث بن خالد المخزومى على عبد الملك فلم يصله ، فرجع وقال فيه :

صحبتك اذ عينى عليها غشاوة   فلما انجلت قطعت نفسى ألومها
حبست عليك النفس حتى كانما   بكفيك تجرى بؤسها ونعيمها

فبلغ قوله عبد الملك فارسل اليه فرده وقال أرأيت عليك غضاضة من مقاملك ببابى ؟ قال لا ولكن اشتقت الى أهلى ووطنى ووجدت فضلا من القول فقلت وعلىّ دين لزمنى قال وكم دينك قال ثلاثون ألفا قال فقضاء دينك أحب اليك أم ولاية مكة قال بل ولاية مكة فولاه اياها . وقدم الحطيئة المدينة فوقف الى عنبسة فقال اعطنى فقال : مالك عندى حق فأعطيكه وما فى مالى فضل عن عيالى فأجود به عليك فخرج عنه مغضباً وعرفه به جلساؤه فأمر برده ثم قال له يا هذا انك وقفت الينا فلم تستأنس ولم تسلم وكتمتنا نفسك كأنك الحطيئة . قال هو ذلك . قال : اجلس فلك عندنا كل ما تحب . قال له : من أشعر الناس ؟ قال الذى يقول

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يعز ومن لا يتق الشتم يشتم

فقال لوكيله خذ بيد هذا فامض به الى السوق فلا يشيرن الى شىء إلا اشتريته له فمضى معه الى السوق فعرض اليه الخز والقز فلم يلتفت الى شىء منه وأشار الى الكرابيس والقطن فاشترى له منها حاجته ثم قال له امسك قال فانه قد أمرنى أن أبسط يدى بالنفقة قال لا حاجة لى أن يكون له على يد أعظم من هذه . ثم أنشأ يقول :

سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلا فسيان لا ذم عليك ولا حمد
وأنت امرؤ لا الجود منك سجية فتعطى وقد يعدى على النائل الوحد

قال سعيد بن مسلم مدحنى اعرابى فابلغ فقال :

ألا قل لسارى الليل لا تخش ضلة سعيد بن سلم نور كل بلاد
لنا سيد أربى على كل سيد جواد حثى فى وجه كل جواد

قال فتأخرت عنه قليلا فهجانى فابلغ فقال :

لكل أخى مدح ثواب علمته وليس لمدح الباهلى ثواب

مدحت سعيداً والمديح مهزة فكان كصفوان عليه تراب

ومدح الحسن بن رجاء أبا دلف فلم يعطه شيئا فقال :

أبادلف ماأ كذب الناس كلهم سواى فانى فى مديحك أ كذب

وقال آخر فى هذا المعنى

انى مدحتك كاذباً فأثبتنى لما مدحتك ما يثاب الكاذب

وقال آخر فى مثل هذا المعنى :

لئن أخطأت فى مدحيك ما أخطأت فى منعى

لقد أحللت حاجاتى بواد غير ذى زرع

ومدح حبيب الطائى عياش بن لهيعة وقدم عليه مصر واستسلفه مائتى مثقال فشاور فيه زوجته فقالت هو شاعر يمدحك اليوم ويهجوك غداً فاعتل عليه واعتذر اليه ولم يقض حاجته فقال فيه :

عياش انك للئيم واننى مذ صرت موضع مطلبى للئيم

ثم هجاه حتى مات وهجاه بعد موته فقال :

لا أسقيت أطلالك الدائره ولا انقضت عثرتك العاثره

يا أسد الموت تخلصته من بين فكى أسد القاهره

ومن قول بعضهم فى هذا المعنى وسأل بعض موالى السلطان اطلاق محبوس فتلكأ فيه فقال

حاشا لمثلك ان يفك اسيرا اوان يكون من الزمان مجيرا

هلا عطفت برحمة لما دعت ويلا عليك مدائحى وثبورا

لو ان لؤمك عاد جودا عشره ما كان عندك حاتم مذكورا

قال : ومدح ربيعة الرقى يزيد بن حاتم الأزدى وهو والى مصر فاستبطاه ربيعة فشخص اليه من مصر وقال :

أرانى ولا كفران لله راجعا بخفى حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ قوله يزيد بن حاتم فارسل فى طلبه فرد اليه فلما دخل عليه قال له أنت القائل :

« أرانى ولا كفران لله راجعاً »

قال : نعم . قال : فهل قلت غير هذا ؟ قال لا والله قال لترجعن بخفى حنين مملوءة مالا . فامر بخلع نعليه وملئت له مالا فقال فيه لما عزل عن مصر وولى يزيد بن حاتم السلمى مكانه

بكى اهل مصر بالدموع السواجم غداة غدا منها الأغر ابن حاتم

وفيها يقول :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى يزيد سُليم والأغر ابن حاتم

فهمُّ الفتى الأزدى انفاق ماله وهم الفتى القيسى جمع الدراهم

فلا يحسب التمتام أنى هجوته ولكننى فضلت أهل المكارم

فصل فى أجواد أهل الجاهلية

الذين انتهى اليهم الجود فى الجاهلية ثلاثة نفر حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى وهرم بن سنان المرى وكعب بن مامة الأيادى ولكن المضروب به المثل حاتم وحده وهو القائل لغلامه يسار وكان اذا اشتد البرد وكلب الشتاء أمر غلامه فأوقد ناراً فى بقاع من الأرض لينظر اليها من أضل الطريق ليلا فيصعد نحوه فقال فى ذلك :

أوقد فان الليل ليل قر والريح ياواقد ريح صر

عل يرى نارك من يمر ان جلبت ضيفا فأنت حر

وقالوا : لم يكن حاتم ممسكا شيئا ما عدا فرسه وسلاحه فانه كان لا يجود بهما

ومر حاتم فى سفره على عنزة وفيهم أسير فاستغاث بحاتم ولم يحضره فكاكه فاشتراه من العنزيين وأطلقه وأقام مكانه فى القيد حتى أدى فداءه

وقالت نوار امرأة حاتم : أصابتنا سنة اقشعر لها الارض واغبر أفق السماء وراحت الابل حدبا حدابير وضنت المراضع على أولادها فما تبض بقطرة وحلقت السنة المال وأيقنا بالهلاك فوالله انا لفى ليلة صنبر بعيدة مابين الطرفين إذ تضاغى صبيتنا جوعا عبد الله وعدى وسفانة فقام حاتم الى الصبيين وقمت أنا الى الصبية فوالله ماسكتوا إلا بعد هدأة من الليل وأقبل يعللنى بالحديث فعرفت ما يريد فتناومت فلما تهوبت النجوم اذا شىء قد رفع كسر البيت ثم عاد فقال من هذا ؟ قالت جارتك فلانة أتيتك من عند صبية يتعاوون عواء الذئاب فما وجدت معولا الا عليك يا أبا عدى فقال أعجليهم فقد أشبعك الله واياهم فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنائبها اربعة كانها نعامة حولها رئالها فقام الى فرسه فوجأ لبته بمدية فخر ثم كشطه عن جلده ودفع المدية الى المرأة فقال لها شأنك فاجتمعنا على اللحم نشوى ونأكل ثم جعل يمشى فى الحى يأتيهم بيتا بيتا فيقول هبوا ايها القوم عليكم بالنار فاجتمعوا والتفع فى ثوبه ناحية ينظر الينا فلا والله ان ذاق منه مزعة وانه لاحوج اليه منا فأصبحنا وما على الأرض من الفرس الا عظم وحافر فانشا حاتم يقول :

مهلا نوار اقلى اللوم والعذلا   ولا تقولى لشىء فات مافعلا
ولا تقولى لمـال كنت مهلكه
مهلا وان كنت اعطى الانس والجبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة   ان الجواد يرى فى ماله سبلا

ولحاتم بن عبد الله ايضا

اما وىّ ان المـال غاد ورائح   ويبقى من المال الاحاديث والذكر
اماوى اما مانع فمبين   واما عطاء لاينهنهه الزجر
أماوى انى لا اقول لسائل   اذا جاء يوما حل فى مالى النذر
أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى
اذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
اماوى ان يصبح صداى بقفرة   من الأرض لاماء لدى ولا خمر
ترى ان ما انفقت لم يك ضرنى   وان يدى مما بخلت به صفر
اذا أنا دلانى الذين يلوننى   بمظلمة لج جوانبها غبر
وراحوا سراعا ينفضون أكفهم   يقولون قد أدمى أظافرنا الحفر
اماوى ان المال مال بذلته   فأوله شكر وآخره ذكر
وقد يعلم الأقوام لو أن حاتماً   أراد ثراء المـال كان له وفر
ولا أظلم ابن العم ان كان اخوتى   شهوداً وقد أودى باخوته الدهر
غنينـا زمانا بالتقصـد والغنى   وكل سقانا وهو كاسبنا الدهر
فما زادنا مأوى على ذى قرابة   غنانا ولا أزرى باحلامنا الفقر

وأما هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذى يقول فيه :
متى تلاق على علاته هرما   تلق السماحة فى خلق وفى خلق

وكان سنان أبو هرم سيد غطفان وماتت امه وهى حامل به وقالت اذا أنا مت فشقوا بطنى فان سيد غطفان فيه فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منه سنانا . وفى بنى سنان يقول زهير :

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم
طابوا وطاب من الاولاد ماولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قوم باولهم أو مجدهم قعدوا
جن اذا فزعوا انس اذا أمنوا
مرزؤن بهاليل اذا قصدوا
محسدون على ما كان من نعم
لا ينزع الله منهم ماله حسدوا

وقال زهير فى هرم بن سنان

وابيض فياض يداه غمامة على معتفيه ما تغب فواضله
تراه اذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله
أخو ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنه قد يتلف المال نائله

أخذ الحسن بن هانىء هذا المعنى فقال :

فتى لا تلوك الخمر شحمة ماله ولكن اياد عود وبواد

وقال زهير فى هرم بن سنان وأهل بيته

اليك أعملتها فتلا مرافقها
شهرين يجهض من أرحامها العلق
حتى دفعن الى حلو شمائله
كالغيث تنبت فى آثاره الورق

من اهل بيت يرى ذو العرش فضلهم
يبنى لهم فى جنان الخلد مرتفق
المطعمين اذا ما ازمة أزمت
والطيبين ثياباً كلما عرقوا
كأن آخرهم فى الجود أولهم
ان الشمائل والأخلاق تتفق
ان قامروا قمروا أوفاخروا فخروا
أو ناضلوا نضلوا أو سابقوا اسبقوا
تنافس الأرض موتاهم اذا دفنوا
كما تنفس عند الباعة الورق

وأما كعب بن مامة الايادى فلم يأت عنه إلا ماذكر من ايثار رفيقه السعدى بالماء حتى مات عطشاً ونجا السعدى وهذا أكثر من كل ما أثنى لغيره وله يقول حبيب :

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وله ولحاتم الطائى :

كعب وحاتم اللذان تقسما
خطط العلا من طارف وتليد
هذا الذى خلف السحاب ومات ذا
فى الجهد ميتة خضرم صنديد

فصل فى ذكر الله تعالى

قال تعالى : « اذكروا الله ذكراً كثيراً »

وقال تعالى « فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو
ـد ذكرا »

وقال تعالى فى ذم المنافقين « ولا يذكرون الله إلا قليلا »

وروى الغزالى هذا الحديث ـ « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله
وجل الا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى
ـى عنده »

وقال تعالى فى الاستغفار « والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم
كروا الله فاستغفروا لذنوبهم »

وقال تعالى : « والمستغفرين بالأسحار »

ومعى الذكر هو توجه المرء لله تعالى بكليته سواء نطق باسمه الكريم
ـم ينطق كما قال تعالى « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية ودون
من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين » وسواء كان
ـلك قائماً أو قاعداً أو نائماً كما قال تعالى « فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا
قياما وقعوداً وعلى جنوبكم » والذكر بهذا المعى واجب للمسلمين
يواظبوا عليه كل يوم وليلة فرادى أو جماعات وهو الذى ندب
الاجتماع عليه المتصوفة فى كل زمان ومكان . ولكن من الأسف
مع مضى الزمن والجهل وفساد الأخلاق ذهب هذا المعنى المقصود
ـات من الذكر وبقيت هيآته فقط وحركات وسكنات تسمى ذكرا
ـى لعب ولغو وألفاظ يدغمونها ويمدونها حتى تصبح أضاحيك

صبيانية وألاعيب لا عبادة ، أو يضربون معها الطبول والزمور أ
يتغنون بالأدوار أو يقومون على أرجلهم ولكن لا تعظيما حقة
ولكن للرقص والدوران وهذا عار على الاسلام والمسلمين وقد د
يصنع فى ليالى الزواج أو الولاد أو نحوها كما يحضر اللاعبون ف
والمطربون . هذا ما يجب على كل شيخ طريق وخليفة وكل مسلم ا
أن يبادر حالا وسريعا الى إبداله وارجاع الذكر الى الطريقة الش
التى تقدم ذكرها ويقول لهم افعلوا كذا فيفعلون ويرجعون الى ا
من الضلال فان لم يفعلوا وقالوا هكذا وجدنا مشايخنا فعليهم إثم ذ
ووزره وقد جرت عادة مشايخ الصوفية بتلاوة شىء من الشعر أو ال
الموضوع فى تمجيد الله والثناء على أنبيائه ملحنا تلحينا بسيطا ليبعث ذ
الشعور والحياة فى نفس الحاضرين ويحملهم على النشاط فى ا
للتفكر لا للطرب ولا باس بهذا . لأن الشعر أشرف الكلام والص
الملحن أشرف الأصوات وتمجيد الله أشرف المواضيع فهى أليق ببعض
وهى طريقة أخذها العرب عن العجم قديما

فصل آخر فى الذكر

قال الله تعالى « فاذكرونى أذكركم » قال ابن عباس اذكرونى بط
أذكركم بمعونتى . وقال سعيد بن جبير اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغ
وقيل أذكرونى فى النعمة والرخاء أذكركم فى الشدة والبلاء . وقال
تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » قال ابن عباس ر
الله عنهما : لم يفرض الله على عباده فريضة الا جعل لها حداً معلوما ثم

أهلها فى حال العذر غير الذكر فانه لم يجعل له حداً ينتهى اليه ولم يعذر أحداً فى تركه الا مغلوبا على عقله وأمرهم فى الأحوال كلها فقال « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم » وقال تعالى « اذكروا الله ذكراً كثيراً » أى بالليل والنهار فى البر والبحر والصحة والسقم فى السر والعلانية وقال مجاهد : الذكر الكثير أن لاتنساه أبداً قال الشيخ عبد العزيز رحمه الله المؤمن يذكر الله كثيراً لانه يذكر الله بقلبه فتسكن جوارحه الى ذكره فلا يبقى منه عضو الا وهو ذاكر فى المعنى فاذا امتدت يده إلى شىء ذكر الله فوقف عن السعى الا فيما يرضى الله عز وجل واذا طمحت عينه إلى شىء ذكر الله فغض بصره عن محارم الله وكذلك سمعه ولسانه وبصره وسائر جوارحه مصونه بمراقبة الله تعالى ومراعاة أمر الله والحياء من نظر الله فهذا هو الذكر الكثير والذكر القليل ذكر المنافقين يذكرون الله بالسنتهم رئاء الناس وليس فى قلوبهم من الذكر شىء قال الله تعالى « يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » والذكر المطلوب ذكر القلب وانما ذكر اللسان طريق اليه فمن لازم ذكر الله بلسانه مخلصا لله وصلت بركة الذكر الى قلبه فعاش قلبه بذكر الله فعند ذلك يكون ذكره كثيراً وقال أبو الليث السمرقندى رحمه الله : اعلم أن ذكر الله تعالى أفضل العبادات لأن الله تعالى جعل لسائر العبادات مقداراً وجعل لها أوقاتا ولم يجعل لذكر الله مقداراً ولا وقتا وأمر بالكثرة من غير مقدار فقال : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا » يعنى اذكروه فى جميع الأحوال . قال : وتفسير الذكر فى الأحوال كلها إن العبد لا يخلو من أربعة أحوال إما أن يكون فى الطاعة أو فى المعصية أو فى النعمة أو فى الشدة فان كان فى الطاعة ينبغى

أن يذكر الله تعالى بالتوفيق ويسال منه القبول وان كان فى المعصية
ينبغى أن يدعو الله بالامتناع ويسأله التوبة وان كان فى النعمة يذكره
بالشكر وان كان فى الشدة يذكره بالصبر وقوله « وسبحوه بكرة وأصيلا »
التسبيح فى الصلاة والذكر ، والبكرة ربع النهار الأول والاصيل الربع
الأخير . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : سبق
المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال : الذاكرون الله كثيرا
والذاكرات روه مسلم . وقال ﷺ لا يقعد قوم يذكرون الله إلا
حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله
فيمن عنده . رواه مسلم

قال القاضى عياض رحمه الله : ذكر الله تعالى ضربان ذكر بالقلب،
وذكر باللسان وذكر القلب نوعان . أحدهما وهو أرفع الأذكار وأجلها
الفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته وآياته فى سمواته
وأرضه ومنه الحديث : خير الذكر الخفى والثانى ذكر بالقلب عند
الأمر والنهى فيمتثل ما أمر به ويترك ما نهى عنه ويترك ما أشكل عليه
وأما ذكر اللسان مجرداً فهو أضعف الأذكار ولكن فيه فضل عظيم كما
جاءت به الأحاديث . قال : وذكر ابن جرير الطبرى وغيره اختلاف
السلف فى ذكر القلب واللسان أيهما أفضل؟ قال القاضى : والخلاف
عندى انما يتصور فى مجرد ذكر القلب تسبيحا وتهليلا وشبههما وعليه
يدل كلامهم لا انهم مختلفون فى الذكر الخفى الذى ذكرناه أولا فذاك
لا يقاربه ذكر اللسان فكيف يفاضله ، وانما الخلاف فى ذكر القلب
بالتسبيح المجرد ونحوه ، والمراد بذكر اللسان مع حضور القلب فان كان
لاهياً فلا واحتج من رجح ذكر القلب بأن عمل السر أفضل ومن

رجح اللسان قال لأن العمل فيه أكثر فانه زاد باستعمال اللسان فاقتضى زيادة أجر . وقال عطاء : مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام كيف تشترى وتبيع وتصوم وتصلى وتنكح وتطلق وتحج وأشباه هذا ويروى عن النبى ﷺ أنه قال « من أطاع الله فقد ذكر الله ، وان قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن »

فصل فى التفكر

قال الله تعالى « الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » أى وفيما أبدع فيهما ليدلهم ذلك على قدرة الصانع ويعرفوا ان لها صانعاً قادراً ومدبراً حكيما قال ابن عباس رضى الله عنهما الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات وما جلبت القلوب بمثل الاحزان ولا استنارت بمثل الفكرة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أن قوما تفكروا فى الله تعالى فقال النبى ﷺ : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فانكم لن تقدروا قدره . وذكر فى الاحياء عن النبى ﷺ أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون . فقال : مالكم لا تتكلمون ؟ فقالوا : نتفكر فى خلق الله تعالى فقال فكذلك افعلوا تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فيه

وعن عطاء قال انطلقت أنا وعبيد بن عمير الى عائشة رضى الله عنها وبيننا وبينها حجاب فقالت ياعبيد ما يمنعك من زيارتنا قال قول النبى ﷺ زر غبا تزدد حبا قال ابن عمير فاخبرينا باعجب شىء رأيته من

رسول الله ﷺ : قال فبكت فقالت كل أمره كان عجبا أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال ذرينى أتعبد لربى تعالى فقام الى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فقال ويحك يا بلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله على فى هذه الليلة « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، وقال الحسن تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضيل : الفكر مرآتك يريك حسناتك وسيئاتك وقال : وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم وما فهم إلا علم وما علم إلا عمل . وقال بشر الحافى : لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه . وقال يوسف بن أسباط : إن الدنيا لم تخلق لينظر اليها بل لينظر بها الى الآخرة . وقال بعض السادة الفكر نور والغفلة ظلمة والجهالة ضلالة والسعيد من وعظ بغيره

وقد ورد فى القران الحث على التفكير فى مخلوقات الله عز وجل قال الله تعالى « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب » الآية وقال تعالى : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » أى وينظروا الى ما خلق الله فيهما من شىء ليستدلوا على وحدانيته فليتفكر الانسان فى السماء وعظمتها وكواكبها وشمسها وقمرها وما فيها كوكب الا ولله تعالى فيه حكمة فى لونه وشكله وموضعه ، وقد قيل : ان الشمس مثل الأرض مرات وان أصغر كوكب فى السماء أكبر من الارض أضعافا فاذا

كان هذا قدر كوكب واحد فانظر الى كثرة الكواكب والى السماء التى فيها الكواكب والى احاطة عينيك ذلك مع صغرها وليتفكر أيضا فى نفسه فان فى خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضى الاعمار فى الوقوف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك وقد أمره الله تعالى بالتدبر فى نفسه فقال : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فاذا تفكر الانسان فى ذلك ازداد بذلك يقينا ومعرفة ومن ذلك تفكره فى انعام الله عليه قال الله تعالى : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فانه اذا تفكر فى ذلك يزيد فى المحبة والشكر

قال الامام أبو حامد الغزالى رحمه الله : واعلم أنك انما تعصى الله تعالى بجوارحك وهى نعمة أنعم الله بها عليك والاستعانة بنعمة الله على معصيته غاية الكفران . ومنها أن يتفكر فى زوال الدنيا وتقلبها بأهلها ولا ينظر الى سعة عيش أهلها بل الى سرعة ظعنهم وشر منقلبهم فاذا حقق العبد ما ذكرناه هانت عليه دنياه وجد فى طاعة مولاه

ومنها : أن يتفكر فى الموت وسكراته ، وفى حال من مضى من اخوانه وأقاربه وأقرانه وكيف كانوا والى أين صاروا وانه صائر الى ما صاروا اليه وقادم الى ما قدموا عليه فان التفكر فى ذلك يحمل على الخوف والخشية وقصر الآمال والمبادرة الى التوبة والى صالح الأعمال

ومنها : أن يتفكر فى أهوال القيامة وكيف يحشر الناس حفاة عراة الى أرض المحشر وفى ازدحام الناس وقرب الشمس من رؤوسهم ، وشدة العرق مع ما فى القلوب من القلق . وفى الحديث ان العرق ياخذ الناس على قدر أعمالهم وفى سؤال ربه عن أعماله بغير واسطة فان التفكر

فى ذلك كله يدعو الى أفعال الخيرات ، والتاهب الوقوف بين يدى عالم الخفيات

ومنها التفكر فى نار جهنم أعاذنا الله منها وشدة حرها فانها فضلت على نار الدنيا وفيما فيها من الحيات والعقارب وغير ذلك من الأهوال الواردة فى القرآن والأحاديث الصحيحة ، ولو أن ملكا توعد انسانا أن يحبسه فى الحمام وأن يتركه فى الصيف فى الشمس لتنغص عليه عيشه وترك شهوته وان التفكر فى ذلك يزيده خوفا ويزجره عن معاصى الله عز وجل

ومنها : أن يتفكر فيما أعد الله لعباده الصالحين فى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فان التفكر فى ذلك يزيده رغبة فيها وقوة على طاعة الله عز وجل

ومنها : أن يتفكر اذا حدثته نفسه بمعصية فى نظر الله عز وجل اليه وانه أقرب اليه من حبل الوريد ويستحضر قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » فان التفكر فى ذلك يحمله على الحياء من الله تعالى والامتناع من المعاصى

فصل فى النيـــــة

قال الله تعالى « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » والمراد بالارادة النية وفى الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى

الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه قال الشافعي رحمه الله يدخل قوله ﷺ انما الأعمال بالنيات فى سبعين بابا من الفقه وقال أيضاً يدخل فى هذا الحديث ثلث العلم قال البيهقى رحمه الله معناه ان كسب العبد انما يكون بقلبه ولسانه وبنانه فالنية أحد أقسام كسبه الثلاثة وهى أرجحها لانها تكون عبادة بانفرادها بخلاف القسمين الآخرين ولأن القول والعمل يدخلهما الفساد بالرياء ولا يدخل النية وعن جابر رضى الله عنه قال كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فقال ان بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض وفى رواية الا شاركوكم فى الأجر رواه مسلم وقال النبى ﷺ إن الله لا ينظر الى أجسامكم ولا الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم رواه مسلم وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله رواه البخارى ومسلم وعن أبى بكرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال انه كان حريصاً على قتل صاحبه رواه البخارى ومسلم قال النووى فيه دلالة للمذهب الصحيح الذى عليه الجمهور أن من نوى المعصية وأصر على النية يكون آثما وان لم يفعلها ولا تكلم بها وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال ان الله تعالى كتب الحسنات والسيئآت ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ومن هم بها وفعلها كتبها الله عنده

عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة وان هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وان هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة رواه البخاري ومسلم وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى أداءه فهو زان ومن أدان دينا وهو لا ينوى أداءه أى قضاءه فهو سارق وقال ﷺ من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة وقال عمر رضى الله عنه أفضل الأعمال أداء ما افترض الله والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى وكتب سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز اعلم ان عون العبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله تعالى له وان نقصت نقص بقدره وقال بعض السلف رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية وقال الثورى كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل وقال بعض العلماء طلب النية قبل العمل وما دمت تنوى الخير فانت بخير وفى الحديث نية المؤمن خير من عمله قال أبو الليث السمرقندى رحمه الله قال بعض أهل العلم لأنه قد يثاب على نية الخير وان لم يعمله ولا يثاب على عمله بلا نية وقال بعضهم نية المؤمن خير من عمله لطول نيته وقصر عمله لأنه قد ينوى أن يعمل الخير ما بقى ولا يستطيع أن يعمل الخير ما بقى وقال بعضهم لأن النية عمل القلب والقلب معدن المعرفة وما كان من معدن المعرفة كان أفضل من غيره

فصل فى السماع والوجد

اعلم أن السماع قد اختلف الناس فيه فمنهم من حرمه ومنهم من أباحه . ونبين حقيقة السماع واباحته فنقول : السماع هو استماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب وليس فى جملة ذلك إلا التذاذ حاسة السمع والقلب فهو كالتذاذ حاسة البصر بالنظر الى الخضرة والتذاذ القلب به وقد قال الله تعالى « يزيد فى الخلق ما يشاء » ففسروه بالصوت الحسن وقال ﷺ : فى أبى موسى الأشعرى لقد أوتى مزمارا من مزامير داود . وفى الحديث ما بعث الله نبيا إلا وهو حسن الصوت ومحال أن يقال هو ممنوع فان استماع صوت العندليب مباح فاذا كان استماع الصوت الطيب مباحا فبأن يكون موزونا لا يحرم وأصوات الغناء موزونة نوعا من الوزن لها مقاطع ومباد متناسبة وهذا لا يختلف بخروج هذا الصوت الطيب من حلق آدمى أو طير أو غيرهما وينبغى أن يقاس على أصوات الطيور مايخرج من الأجسام كالطبل والقضيب والدف والقصب فلا يستثنى من جملتها إلا ماورد النص بتحريمه وذلك كالأوتار والمزامير التى كانت معتادة للشرب إذ اقتضى المنع من شرب الخمر ان يمنع من متمماته وتوابعه مبالغة فى الفطام حتى اقتضى ذلك كسر الدنان فى الابتداء ويدل على ماذكرناه من جوازه ماروى عن الصحابة من التغنى بالأبيات حتى روى فى الصحيحين عن أبى بكر وبلال لما قدما المدينة أن بلالا كان مريضا فاذا أقلعت عنه الحمى قال رافعا صوته رضى الله عنه :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   بواد وحولى اذخر وجليل

وهل اردن يوما مياه مجنة　　وهل تبدون لى شامة وطفيل

وقال أبو بكر رضى الله عنه :

كل امرىء مصبح فى أهـله　　والموت أدنى من شراك نعله

وأما من حيث انه محرك للقلب ومهيج لما هو غالب عليه فنقول ان لله تعالى سراً فى مناسبة الاصوات الموزونة للارواح فتؤثر فيها تاثيراً غريبا فتورثها الحزن مرة والفرح مرة والبكاء مرة والضحك اخرى وتوجب حركات فى الأعضاء غريبة عجيبة ولا تظن ان ذلك لفهم المعنى بل ذلك مشاهد فى الحيوانات خصوصا فى الابل ومشاهد فى الطفل الذى لا يتكلم ولا يفهم ومشـاهد فى أصوات الأوتار التى لا تفهم وعلى الخصوص فى الابل فانها كلما طالت عليها البرارى وأعيت تحت الاحمال وتسمع الحداء فتمد أعناقها وتطوى المراحل

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالرقى قال كنت فى البادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافنى رجل وأدخلنى خباء فرأيت عبداً أسود مقيداً بقيد ورأيت جمالا قد ماتت بين يدى البيت ورأيت جملا قد نحل وهزل كأنه تخرج روحه فقال لى الغلام انت ضيف ولك حق فتشفع لى فانه يكرم ضيفه فلا يرد شفاعته فلعله يحل القيد عن رجلى فلما أحضر الطعام امتنعت وقلت لا آكل مالم أشفع فى هذا العبد فقال ان هـذا الغلام قد أهلك جميع مالى قلت ماذا فعل فقال ان له صوتا طيباً وكنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها احمالا ثقالا وكان يحدو حتى قطع مسيرة ثلاث ليال فى ليلة واحدة من طيب نغمته فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل ولـكن أنت ضيفى قد أكرمتك ووهبته لك . فأحببت أن أسمع صوته

فلما أصبحنا امره أن يحدو على جمل يسقى الماء من بئر هناك فلما رفع صوته هام الجمل وقطع حباله ووقعت أنا لوجهى فما أظن أنى سمعت صوتا أطيب منه فاذا للسماع تأثير غريب ومن لم يحركه السماع فهو ناقص العقل مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية . قال أبو سليمان : السماع لا يحصل فى القلب ما ليس فيه وانما يحرك ما هو فيه فتكره أصوات النياحة لأنها تحرك ماهو مذموم وهو التأسف على الفائت قال الله تعالى « لكيلا تأسوا على ما فاتكم » وقد ورد فيه أخبار كثيرة ولا يكره السماع عند العرس والوليمة والعقيقة وغيرها فان فيه تحريكا لزيادة سرور مباح أو مندوب ويدل عليه ما روى من انشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم رسول الله ﷺ من مكة :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعى

ويدل عليه ما روى فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : رأيت رسول الله ﷺ يسترنى بردائه وأنا أنظر الى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا الذى أسأم

وما روى مسلم والبخارى أيضاً فى صحيحهما عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى يدففان ويضربان والنبى ﷺ متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر رضى الله عنه فكشف النبى ﷺ عن وجهه وقال : دعهما يا أبا بكر فانها أيام عيد . وفى حديث آخر نحوه وفيه يغنيان ويضربان . فهذه الأمور دلت قطعا على اباحة السماع ودلت على اباحة صوت النساء إذا لم يكن بحيث يخاف الفتنة وعلى الجملة فالسماع مهيج

لما فى القلب فان كان فى قلبه عشق مباح فتهيجه جائز وان كان حراما فتهيجه غير جائز . هذا فى سماع أهل الغفلة

وأما سماع أرباب القلوب الذين استهتروا بحب الله والشوق اليه وهم الذين لا ينظرون الى شىء الا ويرونه فيه ولا يقرع سمعهم شىء الا وسمعوا منه أو فيه فسماعهم مؤكد للحب والعشق مهيج للشوق من زناد القلوب مستخرج لضروب من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن دركها ويسمى فى لسان الصوفية وجداً وما يزيد فى حب الله تعالى والشوق اليه ان لم يعد من الفرائض فلا أقل من أن يكون من المباحات كيف وهو مشير لما استدعاه رسول الله ﷺ بدعائه حيث قال : اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب ما يقربنى الى حبك

فاعلم الآن أن السماع محرك للباطن فمن الناس من قويت منته وكمل أمره فلا يحتاج الى محرك من خارج

